مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 364 - 377 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

رمزية المكان الصحراوي في الرواية العربية

رواية"الدراويش يعودون إلى المنفى" لإبراهيم الدرغوثي –أنموذجا –

The symbolism of the desert place in the Arabic novel The novel "The Dervishes Return to Exile" by Ibrahim Darghouti - a model –

*ط.د/بليلي عواطف[1] أ.د.جديد صالح[2]
[1] belleili Awatef [2] Pr.D/Djedid Saleh
جامعة الشادلي بن جديد،الطارف/الجزائر،مخبر التراث والدراسات اللسانية
/Algeria Djedid - El-Tarf Chadli Ben Université
awateff116@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول:2020/10/04	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

يحمل المكان الصحراوي بعدا ثقافيا ومعتقديا، لذلك تعامل معه الروائيون العرب (من أمثال عبد الرحمن منيف،إبراهيم الكوني،رجاء عالم ،إبراهيم الدرغوثي...) بعمق وشمولية، وأبرزوا جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية؛ وبما أن المكان هو أحد المكونات السردية التي يقوم عليها النص؛ تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تجلياته داخل المتن الروائي والبحث عن رمزيته ودلالاته المختلفة لتمثل رواية "الدراويش يعودون إلى المنفى" للروائي التونسي إبراهيم الدرغوثي أنموذجا ؛إذ عمل من خلالها المبدع إلى تقديم صورة عن المكان بنوعيه(المغلق،المفتوح) وما يتمتع به من حمولة ثقافية ورمزية،وتوجيه أنظار المتلقي نحوه،وذلك في سعي منه لأسطرة المكان ومنحه صفات مختلفة عما عهده في الواقع وجذبه نحو اللامألوف.

الكلمات المفتاح : مكان،صحراء،رواية.

Abstract :

The desert place carries a cultural and belief dimension; therefore, the Arab narrators dealt with it deeply and comprehensively, highlighting the essence of the relationship that links man to the desert nature, and since the place is one of the narrative components on which the text is based; this study seeks to reveal its manifestations within the narrative text and search for its symbolism and its implications The novel “Darwish Return to Exile”

*ط.د.بليلي عواطف: awateff116@gmail.com

represents the Tunisian novelist Ibrahim Al Darghouti as a model, through which the creator worked to present a picture of the two types (closed, open) and his cultural and symbolic load, and direct the attention of the recipient towards it, in his endeavor to line the place And He gave him different characteristics from what he had in reality and attracted him to the unfamiliar.

Keywords: : place, desert, novel.

توطئة:

يتبوأ المكان في النص السردي العربي أهمية كبرى،وحضوره متعلق بمدى حسن استثمار المبدع له؛إذ يترجم ميول وقدرات الروائي في نقل الواقع الثقافي والاجتماعي من خلال سلوك الشخصيات ومواقفها الانفعالية مع المكان؛من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة موسومة بعنوان "رمزية المكان الصحراوي في الرواية العربية—رواية الدراويش يعودون إلى المنفى لإبراهيم الدرغوثي[1] أنموذجا"،فقد كان للمكان سطوته وحضوره المتميز داخل الرواية خاصة وأن أحداثها تجري في فضاء لا حد له ألا وهو"الصحراء".

وتحاول هذه الدراسة الإجابة على جملة من التساؤلات منها:

-ما مفهوم المكان الروائي ؟،وما المقصود برواية الصحراء؟

-كيف تجلى المكان في الرواية؟ ،وما هي أبعاده الرمزية؟

والهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن أنواع الأمكنة وما تحمله من رمزية ودلالة،وما لها من تأثير على مسار السرد وطريقة تفاعل الشخصيات معها.

انطلاقا من التدرج المنهجي في البحث عن رمزية المكان الصحراوي في رواية "الدراويش يعودون إلى المنفى"،فإننا نلج هذه الدراسة من خلال تحديد دلالات بعض المصطلحات:

أولا: 1- المكان الروائي:

حظي المكان الروائي باهتمام كثير من الدارسين في عصرنا الحالي؛ذلك أن المكان في نص الرواية يتجاوز كونه مجرد خلفية تقع فيها الأحداث ليمثل محورا أساسيا تدور حوله الأحداث؛«إن أهمية المكان في أي نص سردي تأتي من قيمته الفنية في البناء الروائي مما يجعله معلما يقرأ بوصفه

نصا له دلالاته وقيمه الفنية،وذلك من خلال تحديد إحداثيات المكان تأخذ الأحداث واقعيتها،لأنه لا يمكن تصور أي حدث إلا في مكان ما،وهنا تظهر مقدرة الكاتب على تسخير المكان وتطويعه في مسار الحكي ،فيماثل الخيالي لما هو واقعي أو العكس.»[2]

فالمكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل؛أي ما تصنعه اللغة بناء على أغراض التخييل في الرواية،وبذلك فهو« العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها بعض،وهو الذي يسم الأشخاص والأحداث الروائية في العمق،والمكان يلد السرد قبل أن تلده الأحداث الروائية وبشكل أعمق وأبعد أثرا. »[3]

ويكتسي المكان وظيفة رمزية «تتشكل بصورة مباشرة أحيانا أو قد تحتاج إلى جهد تأويلي وقراءة متماسكة، ومن هنا كان للمكان أهمية على المستويات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية والثقافية، أي بعبارة موجزة إن كل ما يشكل وعي الإنسان الحضاري يرتبط بالمكان على المستوى التاريخي في تعاقبه أو المستوى المتزامن الآني، وقد تنبه **رولان بورنوف Rolan Bornof** إلى هذه القيمة، حيث أكد على الوظيفة الرمزية والإيديولوجية المتصلة بتجسيد المكان،وإلى ضرورة دراسة هذا الجانب واعتباره وجها من وجوه دلالة المكان».[4]

وتتعدد أنواع الأمكنة في النصوص السردية،ليفرض كل نوع منها علاقة خاصة مع الإنسان وتأثيرات مختلفة على كيان الشخصيات ومسار حياتها إذ «قسمتها الدراسات إلى ثنائيات متضادة فمن المكان الفردي والجماعي إلى المفتوح والمغلق وإلى متحرك وثابت ومعنوي ومادي ومخنق ومريح وملجأ من الأخطار ومصدر للرزق كما هو مصدر للضياع والتيه والفناء.»[5]

أ–المكان المفتوح:

يتميز بأنه المكان«الذي لا يخضع لسلطة أحد، ولا لملكيته،أو خاليا من الناس فيكون فضاء للأسطورة نظرا لوحشيته وانعدام مرافق الحياة والحضارة فيه كالصحاري الشاسعة وأدغال الغابات والبحار والمحيطات والقارات والأوطان والفضاء الخارجي ... »[6]

إن الأمكنة المفتوحة «عادة تحاول البحث في التحولات الحاصلة في المجتمع، وفي العلاقات الإنسانية الاجتماعية ومدى تفاعلها مع المكان؛ إن الحديث عن الأمكنة المفتوحة هو حديث عن أماكن ذات مساحات هائلة توحي بالمجهول كالبحر والنهر أو توحي بالسلبية كالمدينة، أو هو حديث عن أماكن ذات مساحات متوسطة كالحي يوحي بالألفة والمحبة».[7]

ب–المكان المغلق:

ويتميز بأنه المكان الذي تضبطه الحدود والحواجز والإشارات،ويخضع للقياس ويدرك بالحواس مما يعزل صاحبه عن العالم الخارجي، وكثيرا ما يكون رمزا للحميمية والألفة والأمن أو الانغلاق والعزلة والاكتئاب.

وتتنوع الأمكنة«انطلاقا من النفس والجسد كمركز للتفكير ووعاء للروح خاضع للسلطة الفردية، وذلك بشكل ذبذبي دائري باتجاه الانفتاح والتوسع:الثياب ثم الحركة ثم الغرفة ثم المنزل ثم الحي والمدينة والمنطقة والوطن والعالم ...وبخضوع الفرد لجدلية الرغبة في انطلاق حرية حركته الحركة إلى الخارج أو الرغبة في الانكماش والتقوقع نحو الداخل»[8]

وتعد الأمكنة المغلقة ظاهرة مكانية مجتمعية، تؤثر في أشخاصها ويؤثرون فيها بما يملكون من عادات اجتماعية وأخلاقية ونفسية وثقافية.وبذلك تلعب دورا حيويا على مستوى الفهم وللتفسير والقراءة النقدية.[9]

2–رواية الصحراء:

تغطي الصحراء مساحة كبيرة من وطننا العربي؛ورغم قساوة مناخها وطبيعتها القاحلة الجرداء،إلا أنها تزخر بموروث ثقافي وفكري،وتأثيرها في الأدب العربي ليست بظاهرة حديثة بل هي قديمة قدم الأدب نفسه؛فالشعر العربي منذ العصر الجاهلي زاخر بالكثير من النصوص التي تفاعل فيها الشعراء مع الصحراء وما تحمله بيئتها من رموز ودلالات.

وفي الأدب العربي المعاصر اتخذ بعض الروائيين العرب (من أمثال عبد الرحمن منيف،إبراهيم الكوني،رجاء عالم، ،إبراهيم الدرغوثي...) في أعمالهم الروائية من الصحراء موضوعا لها أو مسرحا لأحداثها،واستطاع هذا التوجه أن يدفع إلى إعادة النظر في بعض الأفكار التي عدّت الرواية جنس أدبيا لا يمكن له الظهور إلا في المدن ؛إذ «توجهت الرواية العربية المعاصرة في عدد من النماذج المتقدمة فنيا وفكريا إلى الصحراء،وكان طليعة نتائج هذا التوجه أن المكان الروائي الصحراوي خصوصا تجاوز سكونيته السالبة المعهودة في الأنماط الروائية التقليدية،وانضم إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية ومنح عالمها الداخلي مزيدا من التنامي والحيوية والجماليات الإضافية الخاصة.»[10]

ارتبطت الصحراء بالعالم الأسطوري حيث يتمسك فيه الإنسان الصحراوي بمعتقداته وعاداته وتقاليده،ف «كانت الروايات العربية التي اعتمدت الصحراء مكانا،كليا أو جزئيا،في طليعة الروايات العربية المتقدمة فنيا،والأكثر تمثيلا لما يصبو إليه الروائيون والقراء العرب من إيجاد رواية عربية خالصة شكلا ومحتوى،واستطاع بعضها أن يحتضن النوى الضرورية لإنجاز خصوصيتها القومية،وينضم إلى اللبنات الأولى في تحقيق نظريتها المرجوة»[11]

كما أنها مصدر لا ينضب من الرموز «فالصحراء ليست فضاء ومكانا إيكولوجيا خاليا من كل الدلالات والمفردات والمرتبط بالثقافة والتاريخ وعلم الأجناس، المرتبط بحياة الجماعات البشرية التي تعيش فيه ،بل هي فضاء مليء بالرموز التي تولد رؤى فكرية خاصة بها، مما يعطي نصوصا روائية متميزة و متخمة بالدلالات.»[12]

والفضاء الصحراوي له خصوصيتة الثقافية والفكرية«ولا يحضى بامتلاك رموزه إلا مجموعة من الأدباء والكتاب الذين هم سليلو تلك المناطق من العالم العربي الذي شكلت فيه الصحراء جزاءا كبيرا ومهما من الجغرافيا العامة،إضافة إلى تميزها بتراث ثقافي ورمزي من نوعية خاصة أنها ترفض كل ثقافة جديدة طارئة تحاول التغيير أو تسعى إليه»[13]

وتنفرد الرواية الصحراوية بخصوصية ما،تختلف عن رواية المدينة لارتباطها ببيئة جغرافية خاصة وسياقات ثقاقية معينة ،«فأدب الصحراء يختلف عن أدب المدينة وأدب الريف يمتاز عن أدب المدينة كما يمتاز عن أدب الصحراء بما يملكه كل منها من خصوصيات،حيث يبقى حضور البيئة الطبيعة في إنتاج النصوص الأدبية أمرا يرفع من مستوى العمل الفني والإبداعي لأنه يجري بمعزل عن مجتمع المبدع وبيئته (البيئة بمختلف أبعادها الطبيعية والثقافية والاجتماعية والفكرية..)»[14]

وبذلك تكون رواية الصحراء ،رواية لها خصوصيتها الفنية والاجتماعية والثقافية صادرة من أبعاد البيئة الصحراوية ،وما تحمله من مرجعية فكرية ورصيد أسطوري وتنوع ثقافي وتراث شعبي أسهم في ظهور إنتاج روائي يحمل مميزات هذه البيئة.

3-الرمز:

يعتبر الرمز ظاهرة فنية لافتة للنظر، وواحدة من التقنيات التي أسرف الأدباء والشعراء في استخدامها للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وتجاربهم المعاشة بطريقة تلميحية غير مباشرة.

في ما عرف **مالرو كريستوفر Marlowe** الرمز بأنه المعبر عما لا يمكن التعبير عنه إلا به، فالرمز يحمل أكثر من معنى، قابل لتأويلات متعددة.[15]، ولهذا يعد الرمز أحد الأساليب الفنية التي يلجأ إليها الروائي للتعبير عما يخالجه من أفكار وتجارب بطريقة ترميزية تثير المتلقي وتعمل على استمالته والتأثير فيه بطريقة لاشعورية،ومن بين هذه الرموز"المكان" وما يحمله من أبعاد مستوحاة من مختلف المرجعيات الثقافية والدينية والاجتماعية والحضارية.

تأسيسا لما سبق فالرمز وسيلة إيحائية،ومن أبرز وسائل الاتصال بين بني البشر لفهم مختلف التجارب الحياتية المعاشة، وبالتالي فإن توظيف الروائي لبعض الأمكنة توظيفا رمزيا غايته الكشف عن عوالم لا مرئية ورؤى يعمل على ايصالها للمتلقي.

وهذا ما سيتضح في رؤية الروائي "إبراهيم الدرغوثي"في تعامله مع المكان وفق سياقات مختلفة،موظفا من خلال روايته العديد من الأماكن التي تتصل اتصالا مباشرا بأحداث وقعت في فضاء أساسي هو"**الصحراء**".

ثانيا–ملخص الرواية"الدراويش يعودون إلى المنفى":

تتألف الرواية من مقدمة بعنوان "قبل البداية" ثم ثلاثة عشر بابا،ونهاية بعنوان"بعد النهاية"،وتنقلنا أحداثها منذ البدء إلى عالم الحكي المتخيل المنقطع الصلة بالواقع المباشر فأحداثها تبدأ حين يصرح الراوي أنه لم يكن يرغب بكتابة الرواية لو لم يجبره ويهدده درويش بالقتل في حال رفضه لفعل الكتابة.

دأب الفرنسي "فرانسوا مارتال"على زيارة القرية في العام الواحد مرتين رحلة الشتاء والصيف،لكنه على خلاف العادة في هذه المرة التقى مع درويش بطل الرواية والشخصية العجيبة فهو الذي تلتهب النيران في رجليه دون أن يشعر بها،وهو أيضا من قام بالتهام آلة التصوير وكل الأشرطة التي بحوزة الفرنسي،وفي نهاية المطاف يغادر الدرويش ونمرة القرية رفقة سكانها إلى الكهف لمجاورة أهل الكهف السبعة آملين في غد أفضل للقرية،بينما ينتهي الأمر بالفرنسي منتحرا داخل بيته؛لتتداخل العديد من الشخصيات غير المألوفة لدينا واقعيا لكننا نصادفها في عالم الحكايات العجيبة:الدراويش،أهل الكهف وكلبهم،نمرة بنت عمّ درويش.

يمثل المكان العمود الفقري الذي يربط أحداث الرواية فأحداثها تجري في عدة أمكنة ،تنطلق من القرية لتشمل الزاوية والواحة وبيت مارتال، الكهف.

وانطلاقا مما سبق تقديمه يمكننا أن نتناول تجليات المكان وأبعاده الرمزية من خلال الأنواع الظاهرة في النص الروائي.

ثالثا– رمزية الأماكن في الرواية:

1–الأماكن المفتوحة:

من بين الأماكن المفتوحة التي كانت لها بعد رمزي داخل الرواية، نجد القرية،الواحة:

1–1– رمزية القرية:

القرية مساحة جغرافية يقطنها جمع من الناس؛تشكل في الرواية ما يمكن تسميته بمركزية الأحداث،باتت كالمسرح الذي ينطلق منه النص؛يقول السارد«عندما جاء فرنسوا مارتال هذا العام إلى القرية،قام كعادته في كل مرة بزيارة للأحياء القديمة التي يرجع تاريخ بنائها إلى القرن الخامس عشر.»[16]،نستشف من هذا المقطع قدم الطابع المعماري للأحياء التي ترمز إلى تعلق أهلها بتراثهم الثقافي المادي وحفاظهم عليه.لكن زيارات الفرنسي المتكررة وانصياع سكانها وخضوعهم لأفكاره وتخليهم عن عاداتهم وتقاليدهم سيجرهم لا محال نحو مصيرهم المحتوم.

ونشير في هذا الصدد إلى أنه في رواية أخرى للدرغوثي بعنوان"وراء السراب قليلا"تحمل القرية نفس الدلالة؛ إذ خصص الروائي عنوان الفصل الأول من روايته"باسمك اللهم أدخل هذه القرية آمنا" ،وكانت الآية القرآنية الموالية فاتحة لأحداث الرواية،قال تعالى:{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}سورة النحل،الآية 112. وكأن تخلي أهل القرية في الروايتين عن ثقافتهم وعاداتهم كان سببا في معاناتهم وعذابهم شأنهم في ذلك شأن القرية المذكورة في القرآن الكريم؛ والتي كفر أهلها بنعم الله فكان مصيرهم الجوع والخوف والمعاناة.

1–2–الواحة:

تشكل الواحة أحد أجزاء المكان المفتوح التي تجري فيها مختلف النشاطات اليومية،كان لها حضور بسيط في الرواية من خلال الحديث عن بيت الفرنسي الذي شيده فوق هضبة التي تطل على الواحة،يقول السارد: «وفرنسوا مرتال يختار مكان إقامة منزله.وتجري الدنانير بين أيدي البنّائين والنّجّارين والحدّادين.و ترتفع الحيطان فوق الهضبة المطلّة على الواحة، وتعلو زغاريد النّسوة يوم

تدشين المنزل، ويمتدّ السّماط فوق الرمل»[17]،فمكان إقامته موقع هام إذ كان يطل على الواحة مما يسمح له بمتابعة جميع النشاطات الاقتصادية والاجتماعية.

إن الواحة كفضاء مفتوح هي نقيض الصحراء؛فهي منطقة خصبة حيث تكون المياه الجوفية قريبة من السطح ،وهي ملتقى أفكار الناس على اختلافهم ترمز للاستقرار السكاني.وتتميز بتنوع أنشطتها الاقتصادية التي تعكس موروث المنطقة الصحراوية،يقول السارد: «عرضوا عليّ الجمال الباركة ذات السروج المزركشة،وقادوني إلى الدّكاكين التّي تبيع السّلع التّقليدية.أعجبتني الحلي المصنوعة من الفضّة، ولكنّني كتمت إعجابي داخل قلبي،ولم أتكلّم حتّى أعيتهم الحيلة،فهمّوا بمغادرتي.»[18].وهنا إشارة للموروثات المادية الصحراوية التي تتميز بها المنطقة من السروج المزركشة والحلي المصنوعة من الفضة،والتي تعكس ثقافة وعادات أهلها.

2-رمزية الأماكن المغلقة:

2-1-الخيام:

تستعمل هذه الأبنية في المناطق الصحراوية منذ ألاف السنين إذ تعكس-الخيام-نمطا معيشيا معينا،وهنا نقصد حياة البدو فالخيام تمثل مأوى يقيهم من حرارة الشمس والرمال،وكذلك تستخدم في الشتاء لحمايتهم من الرياح الباردة والأمطار؛يقول السارد:«والرجال يقولون:من يفك عن أطفالنا سحر هذا الساحر؟ ويذهبون إلى شيخ القبيلة وشيخ القبيلة في خيمته يتنصّت لطنين مكيف الهواء»[19]؛ فالخيمة التي تعد من الأماكن البسيطة التي يستقر فيها سكان الصحراء لكن رغم شكلها البسيط فهي مزودة بمكيف هوائي،إنها رمز للعربي الذي يحيا حياة البسطاء لكنه يحاول دائما اللحاق بركب الحضارة الغربية حتى ولو على حساب طمس هويته الثقافية.

2-2-البيت:

يمثل البيت للإنسان مكان الاستقرار،ويضمن له الراحة النفسية والجسدية،وأول ما قام به الفرنسي عند وصوله للقرية هو تشييد بيت له؛ يحدثنا الدرغوثي عن تفصيلات منزل الفرنسي "مارتال" ليعطي للمتلقي فكرة عن الخصوصية المعمارية الفنية في البيئة الصحراوية،وذلك بوصفه للمواد المستخدمة في البناء يقول السارد:« فرنسوا مارتال يحب قريتنا حبا كبيرا ، فقد بنى فيها منزلا عصريا أختار له مواد بناء محلية:جريدة النخل وسعفه وخشبه والآجر المشوي والطين وحجر الجبل.انتدب أمهر البنائين في الجهة. وصرف من المال الشيء الكثير،فنقشوا له الحجر، وتفننوا في

صقل الخشب ،وفي تصفيف الجريد حتى صار المنزل تحفة معمارية يزورها السيّاح الذين عبّروا في أكثر من مرة عن إعجابهم الشديد بالمنزل.»[20] ؛ فهندسة البيت كانت عصرية بينما كانت المواد المستخدمة في البناء محلية ،وهنا لم يعد البيت في الخطاب الروائي مجرد مجموعة من الغرف والجدران،بل هو رمز للفرنسي الدخيل القادم من الغرب كي يفرض أجندته الفكرية ؛والذي سعى لتصدير كل ألوان المفاسد التي من شأنها تضليل وتدمير هذه القرية ؛لذا لا تكمن قيمة البيت في شكله الهندسي فقط(بناء عصري بمواد محلية) بل في الأجواء التي تتغلله وفي القيم والأفكار التي تصدر منه.

2-3-الزاوية:

يبحث الإنسان دائما عن المكان المقدس،فهو يسعى دائما للعيش في سكينة مع خالقه،ولا يتسنى له ذلك إلا من خلال بعض الأمكنة التي تمكنه من العبور من العالم السفلي إلى العالم العلوي،ذلك العالم الطاهر المقدس؛الزاوية من بين هذه الأمكنة التي تعددت وظائفها في الخطاب الروائي؛فهي:

أ- مكان للعبادة وأداء الطقوس الدينية يقول السارد:«حين صمت عواء الباب قصدت صحن الزاوية.صلّيت ركعتين تحية للمسجد، وجلست تحت سارية ملساء من الرّخام.بعد حوالي ساعة دخل سيدي و مولاي عبد القادر الجيلاني إلى صحن الزّاوية. كان يعتمر عمامة خضراء في حجم القبة، ويلبس جبّة من الصّوف الخشن، ويمسك في يده سبحة من ذوات الألف حبة.قال: السّلام عيك يا درويش.»[21] ،فعبد القادر الجيلاني والدرويش شخصيتان زاهدتان عن الدنيا ومتاعها يحملان نفس المبادئ والقيم ويسعيان للعيش بحكمة بعيدا عن الموبقات ،ولن يتأتى لهما ذلك إلا في مكان قدسي طاهر تمثله الزاوية.

والدرويش كنمط إنساني بعيدا عن آليات الرمز الذي انطوى عليها الخطاب الروائي هو المقابل الحقيقي للطبقة البسيطة المسحوقة في أي مجتمع.فهو الفقير المعدم والتجسيد الحي للإنسان المنفي داخل وطنه،لكن يظل بقاءه على الهامش وغربته تحملان أملا من أجل بلورة مستقبل أفضل لواقع متردي.

ب- مكان لتعليم القرآن الكريم:يقول الدرويش«عندما اقتربت من الزاوية جاءتني أصوات الأطفال رخيمة، ترتّل القرآن:" إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما

تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما و ينصرك الله نصرا عزيزا»[22]،إذ تؤدي وظيفة تربوية تتمثل في نشر القيم الدينية الإسلامية التي يحرص المعلم على ترسيخها في نفوس أطفال أهل القرية.

إن زاوية الجيلاني المستوية فوق التل«فالزّاوية مبنيّة فوق تلّة تطلّ على القرية من جميع الجهات.حيطانها كعهدي بها،نظيفة،بيضاء.»[23]وفي مقابلها بيت"مارتال" المستوي فوق الهضبة ؛يمكن أن يمثل ارتفاع الزاوية والبيت كنقطتين يشرفان على القرية–المكانة–التي يحظى بها كل من المكانين في نفوس أهل القرية، وبقاء بيت "مارتال" على الهضبة دليل على ارتفاع قيم التراجع والابتذال والذي يرجع إلى إيمان الناس وتكالبهم على هذا الكم من الرذائل.

تؤدي الطرق الصوفية دورا بارزا في تنظيم حياة الصحراوي خاصة منها الحياة الدينية والثقافية والتعليمية حيث كانت لكل طريقة زاوية،وتجلت الزاوية في الرواية موضوع الدراسة في زاوية عبد القادر الجيلاني التي مثلت:مركز ثقافي وتعليمي /مكان للعبادة/مركز لإيواء الضيوف والفقراء.

2–4– رمزية الكهف:

إن الكهف عبارة عن فجوة ذات فتحة في الصخر، وتتواجد الكهوف غالبا في التراكيب الجيولوجية السطحية للجبال،وتحت السطحية كالسهول والصحاري، فالكهف كما جاء في معجم "القاموس المحيط" « كالبيتِ المَنْقورِ في الجبلِ، ج: كُهوفٌ، أو كالغارِ في الجبلِ إلاَّ أنه واسِعٌ، فإذا صَغُرَ؛ فغارٌ.»[24]

إن الكهف في حد ذاته هو مكان موح بكل المشاعر والأحاسيس غير الدنيوية، والرحيل إلى تلك الأعماق التي تكاد أن تلامس رحم الأرض يصحبه سفر روحي يودع معه المتعمق داخل الأنفاق صخب الحياة، ويقترب في بؤرة اتصال بعوالم سريانية غير منظورة، لقد كان إنسان الحضارات العليا بما اكتسبه من تقنيات معمارية قادرا على تصور وبناء هياكل كبرى تستقطب أجواؤها التي يصطبغها معماريا انفعالاته الدينية وتعكس إحساسه بالمجال القدسي[25]

يأتي الكهف في الرواية كمكان عجيب له دوره الفعال في الأحداث اتخذه درويش ملجأ له ولأهل قريتة ليلتقي هناك بأصحاب الكهف وكلبهم،يقول السارد:«سأضمن لك مكانك مع أصحاب الكهف !جفل،ثم تمالك نفسه وتذكّر ،أم حسبت أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجبا.إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا

رشدا.فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا.ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا.قال:وهل يتسع لنا الكهف جميعا؟ قالت:لا يهمك سأتدبّر الأمر.»[26].

يحيلنا المقطع السابق إلى قوله عز وجل:{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا،إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا }سورة الكهف،الآيات(9،10، 11،12)، وفي ذلك تناص مع القرآن الكريم؛فكما لجأ أصحاب الكهف وكلبهم إلى الكهف فرارا بدينهم من أقوامهم الذين كانوا يعبدون الأصنام لجأ درويش وأهل قريته إلى الكهف حيث ينام أهل الكهف السبعة وكلبهم هربا من الوضع الذي آلت إليه قريتهم بعدما حل بها جراء ما بثه الفرنسي فيها من موبقات وأفكار غربية،يقول السارد:«إلى أن لعلع البارود ذات يوم، فدخلنا مدينة سرّ من رأى و أغلقنا وراءنا أبواب السّور، ونمنا مع أصحاب الكهف في مغارتهم.كمّمنا كلبهم حتى لا يوقظنا نباحه، وأسبلنا الجفون على العيون،ونمنا.»[27]،وهكذا فإن عمل الروائي على توظيف قصة أهل الكهف وإسقاطها على أهل قريته لترمز إلى تشابه ما حدث في الماضي وما يقع في الحاضر من اضطهاد حقوق الضعفاء في العيش بحرية.

تحول الكهف كمكان من الحيز المادي إلى الحيز الروحي ليرتقي إلى المستوى الرمزي «رفضوا أن يبدّلوا دنانيرنا الذّهبية بالدولارات، فقرّرنا العودة إلى الكهف.ما رأيك هل يتّسع كهفكم لكل سكّان القرية ؟»[28]؛ فانسحاب الجميع(الدرويش وأهل القرية) وانتظارهم للموت داخل هذا الكهف ليس هروبا من الواقع ،وإنما هو الآخر حل رمزي للخروج من هذا الضلال ؛بل ويحمل أيضا معنى الاحتجاج الراقي على الواقع الذي تعيشه البلاد العربية.

وفي الحقيقة يمثل "الدرويش" و"فرانسوا مارتال" رمزان على درجة عالية من الثبات والرسوخ، لا يتحقق لهما الفناء؛نظرا لما يحملانه من دلالات معنوية تشكل اتجاهاتهما الفكرية المتناقضة(الحضارة الغربية والحضارة العربية).

الخاتمة: وفي نهاية هذه الدراسة خلصنا إلى جملة من النتائج أهمها:

– عمد الدرغوثي لتوظيف الأسطورة كمادة قصصية تقوم على مكوناتها الرواية،فلجأ إلى إحياء شخوص وكائنات خفية (أهل الكهف وكلبهم) ليحرر المكان الطبيعي والمادي،ويطلق العنان إلى خياله لتحمل الأماكن دلالات رمزية.

–لا يكترث الدرغوثي بالبعد الجغرافي للأماكن،بل يتجه إلى مرجعياتها ،الهدف من ذلك الإعلاء من شأن المكان من خلال نسبة الشخوص إليه (نسبة الكهف إلى أهل الكهف)،(نسبة الزاوية إلى صاحبها عبد القادر الجيلاني).

– تنقل الرواية للقارئ المعتقدات والطقوس التي لها علاقة بالمكان،ومن هنا لا تنحصر الأهمية في المكان كمركز للأحداث بل في ما ينطوي عليه من معان ورموز.

–شملت الرواية المكان بنوعيه(المفتوح–المغلق) شحنها الروائي برموز مختلفة تنم عن رفضه للواقع الراهن وأمله في تحسن الأوضاع.

– جعل الدرغوثي من الصحراء التي تتميز طبيعتها بالجفاف والحرارة الشديدة مكانا منتعشا بالرمزية ليرسم من خلال أحداث الرواية حياة الإنسان الصحراوي.

ومما سبق ذكره فإن العمل على توظيف المكان الصحراوي بمختلف أنواعه في الخطاب الروائي العربي عموما و المغاربي على وجه الخصوص–لشاسعة صحراء المغرب العربي–بأشكاله المتعددة في السرد المعاصر أمر لابد منه لتحقيق التواصل بين الأجيال والمحافظة على هذا الإرث بتوثيقه وتدوينه في شتى الأشكال التعبيرية بما في ذلك الرواية.

هوامش:

[1] –الروائي إبراهيم الدرغوثي:قاص وروائي ومترجم تونسي ولد بتوزر في 21 ديسمبر 1955،نائب رئيس إتحاد الكتاب التونسيين،له مجموعة من القصص القصيرة والروايات،ينظر: رواية كلاب الجحيم ،دار زينب للنشر والتوزيع،تونس،ط1، 2016، ص1.

[2] –تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية–رواية وراء السراب ...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا،الثقافة للنشر والتوزيع،المنستير،تونس،ط1،أكتوبر 2014،ص124.

[3] –عبد الحميد المحادين:جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،ط 1 ،2001ص27.

[4]– محمد مصطفى حسانين:استعادة المكان (دراسة في آليات السرد والتأويل)، دط،دت،ص 11

[5]–المرجع نفسه ،ص78.

[6]– تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية–رواية وراء السراب ...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا، ص127.

[7] – محبوبة محمدي محمد آبادي: جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، دمشق، 2011، ص95.

[8]– تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا،ص129.

[9]–محبوبة محمدي محمد آبادي: جماليات المكان في قصص سعيد حورانية،ص 56

[10]–صلاح صالح:الرواية العربية والصحراء،منشورات وزارة الثقافة،دمشق،دط،1996،ص7.

[11]–المرجع نفسه،ص311.

[12]–تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا، ص29

[13]أمينة محمد برانين:فضاء الصحراء في الرواية العربية،دار غيداء للنشر والتوزيع ،عمان ،ط1، 2011،ص17

[14]–تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا،ص18.

[15]–ينظر: فيليب سيرينج، الرموز في الفن– الأديان– الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، دمشق، ط1، 1992، ص 41.

[16]– إبراهيم الدرغوثي:الدراويش يعودون إلى المنفى، دار غراب للنشر،القاهرة،مصر،2011،ط4 ،ص27.

[17]– المصدر نفسه،ص116.

[18]- المصدر نفسه،ص138.

[19]– المصدر نفسه ،ص23.

[20]– المصدر نفسه ،ص25.

[21]–المصدر نفسه،ص129،130.

[22]–المصدر نفسه،ص124.

[23] –المصدر نفسه،ص123

[24]–الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم الوقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ | 2005، ص 851

[25]-ينظر: فراس السواح: دين الإنسان(بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، دار علاء الدين،دمشق، سوريا، ط4،2002،ص 151.

[26] إبراهيم الدرغوثي:الدراويش يعودون إلى المنفى،ص146.

[27]- المصدر نفسه ،ص136.

[28]- المصدر نفسه ،ص144.